

سوسيولوجيا الدين أم سوسيولوجيا المعتقدات الدينية؟ في دراسة الظاهرة الدينية المعاصرة

■ محمد الإدريسي

ملخص

تهدف هذه الورقة إلى محاولة فهم حقيقة النقاش الدائر اليوم داخل «الجماعات العلمية» حول العلاقة بين سوسيولوجيا الدين أو سوسيولوجيا التدين وسوسيولوجيا المعتقدات الدينية، عبر لفت الانتباه إلى كون العلوم الاجتماعية تقارب الدين كممارسات وسلوكيات اجتماعية وفردية (التدين «La Religiosité») استناداً إلى نسق منهجي يستدمج الذاتي والموضوعي في بناء الخطاب التفسيري والتحليلي حول الظاهرة التدينية. إن سوسيولوجيا المعتقدات الدينية - بحسب عالم الاجتماع الفرنسي المعاصر هنري كوين - «حساسة» وأكثر عرضة لإغراءات التخصصات التي تقع على حدودها: الأنثروبولوجيا بالطبع، لكن أيضاً الاقتصاد والعلوم المعرفية - والتي، في هذه الحالة، هي أقل عرضة لهذه الإغراءات. لكن كل هذا يبدو كلاسيكياً وبالكاد يمكن من خلاله الحديث عن تداخل بين التخصصات - ربما فقط تعدد التخصصات في إطار العقلانية المعرفية (La Rationalité cognitive).

■ باحث في علم الاجتماع من المغرب.



الكلمات المفتاح: السوسيولوجيا، الدين، التدين، المعتقدات الدينية،
التداخل بين التخصصات، العلوم الاجتماعية.

إن مواجهة مسلسل التغيرات الكونية في مجال التدين الإنساني تفرض علينا «فهم» و«تفسير» العالم الديني «Le Monde religieux» من أجل الوقوف عند مكامن الخلل، لكن أيضاً لنشعر بأن المعتقدات الدينية «Les croyances religieuses» توجد في قلب الفعاليات العلمية، وندرك جيداً أننا جزء لا يتجزأ من هذا «العالم التديني» «Le Monde Religieuse» ومسؤولون عن التحولات والتغيرات التي يشهدها. بمعنى آخر، إن هذه التحولات تؤثر على بنياتنا الذهنية كما تؤثر بنياتنا الموضوعية. لذلك انطلق من دراسة العلاقة بين الدين والمعتقد الديني من منظور السوسيولوجيا المعاصرة، في إطار مقارنة متداخلة وعابرة للتخصصات «pluridisciplinarité et transdisciplinarité» لفهم طبيعة الإنتاجات العلمية الجديدة حول الحقل التديني، وبعد ذلك أعرج على النماذج العلمية لدراسة المعتقدات الدينية من وجهة نظر عقلانية وثقافية، كما أركز بشكل أساسي على قيمة وضرورة تجديد الحوار بين السوسيولوجيا، الأنثروبولوجيا، الفلسفة، العلوم النفسية، اللسانيات... كرد فعل ضد سوقنة «Marketization» وسلعنة «Marchandisation» الدين كحقل ممكنات استراتيجية مفرغ من الفعالية العقدية والإنتاجية العلمية.

نظرت العلوم الاجتماعية إلى قضية المعتقدات الدينية بوصفها مدخلاً ابستمولوجياً لتحليل الظاهرة الدينية، كواقعة اجتماعية¹، ضمن ما يعرف بسوسيولوجيا وأنثروبولوجيا الدين أو الأديان² التي قاربت «الحقل الديني» «le champ religieux» و«الهيئات الدينية» «Les instances religieuses» في تفاعلها مع الحقول الاقتصادية، الثقافية، السياسية والاجتماعية. اليوم،

1 - محمد الإدريسي، إبستمولوجيا الظاهرة الدينية بين الاستحالة والإمكان، مجلة نماء (مركز نماء للدراسات والبحوث)، العدد الثاني، شتاء 2016، ص 274.

2 - نتحدث هنا عن سوسيولوجيا الأديان «la sociologie des religions» كدراسة علمية موضوعية للتدين والممارسات الدينية باعتبارها إنتاجاً اجتماعياً، وليس عن السوسيولوجيا الدينية «la sociologie religieuse» التي أنتجت الكنيسة الكاثوليكية لدعم مصالحها السياسية والاجتماعية (المرجع السابق، ص 274).

أصبحت المعتقدات الدينية تشكّل تحدياً خاصاً أمام السوسيولوجيا: يتعلّق الأمر بقانون جوهرى لطبيعة الأشياء، يخترق المجتمع وأعماق كل منا على حدّ سواء، فعندما نسأل فرداً «ما دينك؟» «Quelle est votre religion?» فنحن نسأله «ما هي طريقة عيشك وحياتك؟» «Quel est votre way of life?»؛¹ أي عن نظرتة إلى ذاته والعالم من خلال المعتقد وعبره.

يأتي مفهوم «الاعتقاد» في حد ذاته في صيغة الجمع [في اللغة الفرنسية: «croire»]. بداية، لا بدّ من التحديد اللغوي للمفهوم: لا نعتقد في أن اثنين في اثنين تساوي أربعة، نحن نعلم (أنها «خبرة»)، وقدر بسيط من المعرفة) ذلك؛

نظرت العلوم الاجتماعية إلى قضية المعتقدات الدينية بوصفها مدخلاً ابستمولوجياً لتحليل الظاهرة الدينية، كواقعة اجتماعية، ضمن ما يعرف بسوسيولوجيا وأنتروبولوجيا الدين أو الأديان التي قاربت «الحقل الديني».

ونعتقد بأنها ستمطر غداً (هذا رأي يخلو من اليقين) ونعتقد بأن الله قد خلق العالم (إنه اعتقاد ذاتي يخلو من اليقين الموضوعي). وعلاوة على ذلك، يختلف معنى فعل «اعتقاد» (Croire) عن دلالة «أعتقد بأن الله موجود»، وعن «أعتقد في الله» (بمعنى، أنني أثق فيه). إلى جانب ذلك، نسمع قول بعض المسيحيين «لا أعتقد بأن الله موجود بالفعل، لكن أعقد فيه»! من السخافة هنا، أن نتصور عدم الاعتقاد في [وجود] الأشباح رغم كوننا نخاف من بعض الليالي، أو أفضل من ذلك،

نعرف بأننا نصرخ أو نخاف أو تدمع عيوننا عند قراءة كتاب أو مشاهدة فيلم يحكي عن الخيال²؛ أي إن البناء الذهني للاعتقاد مرتبط بالبنيات الموضوعية والشروط الاجتماعية لإنتاج المعتقدات ذاتها داخل كل مجتمع.

لدراسة الدين كواقعة اجتماعية، عملت السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا على موضعة المعرفة حول المجتمع، حيث لا يتمّ فصل الدراسة العلمية للظاهرة

1 - Lakshmi Kapani, "Spécificités de la religion hindoue", in Jean DELUMEAU (dir.), Le fait religieux, Fayard, Paris, 1993, p. 375.

2 - Charles-Henry Cuin, "La sociologie des croyances religieuses à ses frontières", Sociologie /1 (Vol. 4), 2013, p. 82.

الدينية وإنتاج التدين عن السياق العام لمسلسل التغيّر الاجتماعي وتحول الوظيفة السوسيو - تاريخية للدين داخل المجتمعات الإنسانية. يعكس تفاعل العلوم الاجتماعية مع العلوم الدينية حقيقة التطور التاريخي للدين كموضوع للدراسة في خضم اختلاف منطلقات كل حقل معرفي: تقارب العلوم الاجتماعية المعتقدات الدينية من منظور نسبانيته وارتباطها بوقائع فعلية ليست بالضرورة خيالية، لكن من المستحيل أو من الصعب البرهنة على حقيقة وجودها بوسائل منطقية أو تجريبية مقبولة، لذلك فمسألة حقيقة وجودها لا تدخل في صلب اهتمام علماء الاجتماع بل فقط المعتقدين فيها¹، في حين أن العلوم الدينية² تقارب الدين من حيث هو معتقد يحمل حقيقته المطلقة في ذاته، ويبني قوته من حيث وجود المعتقدين فيه. نجد هنا أن حضور النزعة الكانطية جد مهم³: «تقع المعتقدات الدينية، كما يقول الفيلسوف، ضمن نطاق الإيمان، يعني أحكام تجمع بين اعتقاد ذاتي وغياب يقين موضوعي»⁴، لذلك فسؤال اليقين هو الذي يحرك العلوم الدينية [دراسة الدين من داخل الدين]، في حين أن سؤال الموضوعية هو الذي يؤطر العلوم الاجتماعية [دراسة الأديان من خارج الأديان].

يظل الدين والمعتقد الديني موضوع تفاعل ونقاش بين علوم مختلفة أكثر منه موضوع علم محدد وخاص. لذلك سيطرح سؤال مشروع من الناحية الابستمولوجية: هل نحن أمام تداخل بين التخصصات أم فقط أمام تعدد للتخصصات في سياق دراسة ظاهرة مركبة ومعقدة الأبعاد؟ يمكن أن نعتبر تعدد المقاربات العلمية التي تتناول المعتقدات الدينية، قد أسهم في التفسير النقدي والعقلاني للتمثيلات والممارسات التدينية عبر عوامل مختلفة، سواء

Ibid.

- 1

- 2 - نقصد هنا «العلوم الدينية» «Les sciences religieuses» [العلوم الدينية المسيحية، العلوم الدينية الإسلامية]، وليس علوم الأديان «Les sciences des religions» [سوسولوجيا الأديان، أنثروبولوجيا الأديان، إثنولوجيا الأديان...].

محمد الإدريسي، إبستمولوجيا الظاهرة الدينية بين الاستحالة والإمكان، مرجع سابق، ص 277.

- 3 - انظر كتاب: «نقد العقل الخالص للفيلسوف الألماني الحديث إيمانويل كانط»:

إيمانويل كانط، نقد العقل المحض، ترجمة موسى وهبة، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، 1988.

- 4 - cité dans Charles-Henry Cuin, "La sociologie des croyances religieuses à ses frontières", op. cit. p: 83.

أنثروبولوجية (فيورباخ) نفسية (فرويد) سوسيولوجية (دوركهايم) اقتصادية (ماركس)... رغم أن العديد من هذه المقاربات قد خلطت بين الدراسة العقلانية والعلمية للظاهرة التدينية والنقد الإيديولوجي للدين على أساس مشروع إصلاح اجتماعي أو اقتصادي أو تصور بديل لحقيقة الإنسان والعالم؛ عززت الفلسفة الماركسية هذا الاتجاه من خلال النظر إلى الدين كوضعية اجتماعية عرضية وبنية فوقية ذات أهمية ثانوية ضمن النسيج الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع¹، ويمكن التنبؤ بنهايتها بمجرد زوال نمط الإنتاج الرأسمالي والعودة إلى نمط الإنتاج الاشتراكي ثم المشاعي؛ أي إمكانية الحديث عن نهاية الأشكال والمؤسسات الدينية بتبني التفسيرات المادية والتاريخية لإنتاج البنيات الاجتماعية والسياسية.

لقد أعادت سوسيولوجيا الأديان رد الاعتبار لنفسها كحقل ريادي ضمن السوسيولوجيا العامة، عبر التركيز على دور الدين في فهم تغيّرات المجتمعات المعاصرة وتطوراتها.

اليوم، نجد أن السوسيولوجيا - خاصة - قد استفادت من تعدد المقاربات التي تناولت المعتقدات الدينية المعاصرة، في اتجاه الاستقلال عن الفلسفات الخطية التاريخية؛ من منطلق مقارنة تأثير الحداثة على «تغيّر واختلاف أنماط التدين» وليس «تراجع أو نهاية الدين» [نقداً للفلسفات المادية والتاريخية من خلال

نظريات عودة الدين و«الله» ضمن نسق الحياة الاجتماعية والفردية المعاصرة]. لقد أعادت سوسيولوجيا الأديان رد الاعتبار لنفسها كحقل ريادي ضمن السوسيولوجيا العامة، عبر التركيز على دور الدين في فهم تغيّرات المجتمعات المعاصرة وتطوراتها. عبر الاهتمام بأهمية الدين في تشكيل وبناء الأداء الاجتماعي، ساهم التفكير الاجتماعي في تأهيل حقل المعتقدات الدينية كظاهرة جديرة بالدراسة العلمية، وقطع أشواطاً مهمة في سبيل جعل الظاهرة الدينية موضع تحليل وفهم وتفسير علمي، وراكم إنتاجات علمية

1 - انظر: Jean-Paul Willaime, L'approche sociologique des faits religieux, Actes de l'université d'automne - Religions et modernité, 2003.



مهمة في هذا الصدد¹ جديرة بأن تكون مرجعية في دراسة عالم منشيك ومعوالم على نحو متزايد ومستمر.

أمام هذه التحولات المهمة في جوهر دراسة العلوم الاجتماعية للظاهرة الدينية، يظلّ السؤال المطروح بقوة - وبقلق شديد - هو ما إذا كان من الممكن الحديث عن معرفة دقيقة لما يقوله الفرد عندما يصرّح بأنه يعتقد في شيء ما، أو عندما يصرح بأنه لا يعتقد في أي شيء؟ يمكن أن نستحضر، ببساطة، المسوحات الوطنية أو الدولية الكبرى²، التي تقوم حول أجوبة عامة عن أسئلة عامة (غالباً ما تكون مغلقة) من أجل القياس الدوري لنسبة «المؤمنين الدينيين»، إضافة إلى التطور المحتمل لبعض معتقداتهم الأساسية (أنماط التدين الجديدة على سبيل المثال). لنأخذ فقط أمثلة أولية: هل يجب أساساً ترتيب - من بين اللامعتقدين - المجيبين الذين لا يتشاركون معتقداتهم المعيارية والرسمية لديانتهم - «معتقدون بدون معتقدات»؟³ أو أيضاً: كيف يمكن أن نفسر عودة بعض الأنواع من التدين والمعتقدات الدينية - خاصة بالمجتمعات العربية - بين الأفراد والجماعات (التدين السلفي، التدين الفردي...)، أو النجاح

1 - انظر على سبيل المثال بعض الأعمال الفرنسية الرائدة في المجال:

Danièle HERVIEU-LEGER, avec la collaboration de Françoise CHAMPION, Vers un nouveau christianisme? Introduction à la sociologie du christianisme occidental, Le Cerf, Paris, 1986; Danièle HERVIEU-LEGER, Le Pèlerin et le Converti. La religion en mouvement, Paris, Flammarion, 1999; La religion en miettes ou la question des sectes, Calmann-Lévy, Paris, 2001; Danièle HERVIEU-LEGER et Jean-Paul WILLAIME, Sociologies et religion. Approches classiques, PUF, Paris, 2001; Jean-Paul WILLAIME, Sociologie des religions, PUF, coll. "Que sais-je?", Paris, 1998.

2 - في ظل غياب دراسات ومسوحات سوسيولوجية ملتزمة وقومية حول التدين بالعالم العربي، سنفتح على المسوحات الدولية. لمزيد من التفاصيل انظر:

Grace DAVIE "Believing without Belonging: Is This the Future of Religion in Britain?" Social Compass, 37 (4), 1990, p. 455-469; Grace DAVIE, in Europe: The Exceptional Case. Parameters of Faith in the Modern World, Darton-Longman and Todd, Londres, 2002; Roland J. CAMPICHE, Cultures jeunes et religions en Europe, Paris, Le Cerf, 1997; Jean-François BARBIER-BOUVET, Les Français et la Bible, direction du développement. Bureau d'études, 1991; La religion au Lycée. Conférences au Lycée Buffon, Paris, Le Cerf, 1990; Pierre BRECHON, "Les attitudes religieuses en France: quelles recompositions en cours?", Archives de Sciences Sociales des Religions, n°109, janv.-mars 2000.

Charles-Henry Cuin, "La sociologie des croyances religieuses à ses frontières", op. cit. p. 82. - 3

المتزايد لمعتقدات مناقضة للمعتقد الأصلي (التدين المتطرف)؟ وكيف يمكن أيضاً أن نفسر الحركة المستمرة لتعايش معتقدات دينية أجنبية ضمن نفس نمط التدين أو حتى تغير معتقدات محلية (إسلامية) بمعتقدات أجنبية (مسيحية)؟ هل يمكن أن نتحدث عن سوسيولوجيا تتجاوز الدراسة الكلاسيكية للأديان نحو دراسة المعتقدات الدينية، وتلتزم بحدود موضوعها؟ أو بلغة أخرى، كيف يمكن الحديث عن إمكانية دراسة المعتقدات الدينية مع احترام الخصوصيات الدينية للدين نفسه؟

أمام هذه التحولات المهمة في جوهر دراسة العلوم الاجتماعية للظاهرة الدينية، يظل السؤال المطروح بقوة - وبقلق شديد - هو ما إذا كان من الممكن الحديث عن معرفة دقيقة لما يقوله الفرد عندما يصرح بأنه يعتقد في شيء ما.

بدايةً، هناك إجماع إبستيمولوجي على ضرورة دراسة المعتقد الديني، من الناحية السوسيولوجية، من خارج المعتقدات الدينية بل من خارج الدين نفسه.¹ اقترح «جان بول وليم» (Jean-Paul Willaime)² تصوراً سوسيولوجياً جديداً للدين كتواصل رمزي منظم عبر طقوس ومعتقدات مرتبطة بوحى مؤسس (أو يعيد التأسيس) ومنتج للنبوة. فإذا كانت الكاريزمية تمثل الانبثاق الاجتماعي لقوة شخصية (الرسل)، وتمثل أيضاً قوى أخرى، تختلف عن كل الأنظمة المعتادة للسلطة (المؤسساتية أو

التقليدية) ورهاناتها المختلفة (الاقتصادية، السياسية...)³، فمن خلال الآثار

1 - محمد الإدريسي، إبستيمولوجيا الظاهرة الدينية بين الاستحالة والإمكان، مرجع سابق، ص 279.

2 - Jean-Paul WILLAIME, Sociologie des religions, PUF, coll. "Que sais-je?", Paris, 1998.

3 - Jean-Paul WILLAIME, "La construction des liens socio-religieux: essai de typologie à partir des modes de médiation du charisme" in Yves LAMBERT, Guy MICHELAT et Albert PIETTE (dir.), Le religieux des sociologues. Trajectoires personnelles et débats scientifiques, L'Harmattan, Paris, 1997.

3 - لمزيد من التفاصيل حول نظم السلطة والمشروعية الدينية، انظر الأعمال المؤسسة للسوسيولوجي الألماني ماكس فيبر: Max WEBER, L'éthique protestante et l'esprit du capitalisme suivi d'autres essais, édité, traduit et présenté par Jean-Pierre Grossein avec la collaboration de Fernand Cambon, Gallimard, Paris, 2003.

Max WEBER, Sociologie des Religions. Textes réunis et traduits par Jean-Pierre Grossein. Introduction de Jean-Claude Passeron, Gallimard, Paris, 1996.

الاجتماعية للهيمنة الكاريزمية يُظهر الدين، من الناحية السوسولوجية، فعاليته الاجتماعية: يتعلق الأمر بنشاط يرتبط بالوحي المُنزل ويؤدّ تواصلًا رمزيًا ثابتًا ويحدد الثقافة استناداً إلى العناصر التي تنتقل بطريقة أو بأخرى وإنشاء النبوة¹. بهذا المعنى تصبح المعتقدات الدينية «نشاطاً تقليدياً رمزياً» يفرض نفسه بالقوة (القوة الدينية)، ويصبح الدين نفسه مقترناً بنبي يخبرنا بأن العناصر الرمزية المستخدمة موجودة في الكتاب المقدس. باختصار كل ما سنفعله يعتمد على التقاليد التي نتبعها² وعلى الشروط الاجتماعية المنتجة لها.

ثانياً، يتسم العالم أو العوالم الدينية بالتركيب والانفلات، نظراً لكون المعتقدات الدينية لا تحيل بالضرورة إلى قناعات - أو رؤى اجتماعية - تدافع عنها تنظيمات اجتماعية أو أفراد معينون فقط، بل تتضمن رهانات إيديولوجية، سياسية، اقتصادية... وأيضاً إراثاً حضارياً وثقافياً معينة: إن النبوة لا تُنتج أو تُصنع التنظيمات الدينية والاجتماعية بل تصنع الثقافة والحضارة الإنسانية³. إن كل عالم ديني يتمسك بمؤسسيه ويخلق عالماً جديداً من العلامات، تخضع لمختلف أنواع التفسير والتأويل، وتخضع في الوقت نفسه لمختلف الأنظمة الاجتماعية المؤسساتية والاجتماعية التي أنتجتها⁴ وإعادة إنتاجها⁵. بهذا المعنى، تصبح سوسولوجيا المعتقدات الدينية مقترنة بالضرورة بالروابط الاجتماعية التي يخلقها الدين في الزمان والمكان وانتقال وتغيّر الأشكال المختلفة من التضامات والانتماءات التي تخلقها المعتقدات الدينية في حدّ

1 - Jean-Paul WILLAIME, Sociologie des religions, op. cit. p: 114.

2 - Henri HATZFELD, Les Racines de la religion. Tradition, rituel, valeurs, Seuil, Paris, 1993, p: 38

3 - انظر: Jean-Paul WILLAIME, "La construction des liens socio-religieux: essai de typologie à partir des modes de médiation du charisme" in Yves LAMBERT, Guy MICHELAT et Albert PIETTE (dir.), Le religieux des sociologues. Trajectoires personnelles et débats scientifiques, L'Harmattan, Paris, 1997, p. 97-108.

4 - محمد الإدريسي، إستيمولوجيا الظاهرة الدينية بين الاستحالة والإمكان، مرجع سابق، ص 282.

5 - يمكن أن نُذكر هنا بالقوة والسلطة التي امتلكتها الكنيسة المسيحية - الكاثوليكية خاصة - على المستوى الاجتماعي، السياسي، الاقتصادي، الثقافي بل أيضاً حتى على المستوى العلمي. أما بالنسبة للعالم العربي، وفي ظل غياب مؤسسات دينية منظمة، يمكن أن نشير إلى دور الزاوية في تاريخ بعض الدول - خاصة المغرب (المرجع نفسه).

ذاتها¹ (العقيدة)، فمعظم أشكال المؤانسة التدينية لا ترتبط في كثيرٍ من الأحيان بنمط الاعتقاد الرسمي الذي ينتجه الدين والنبي والوحي. تُنتج الأديان مجتمعاً مختلفاً عمّا هو مؤسساتي أو جمعاني، بحيث يصبح المعتقد «طريقة للتصرف داخل المجتمع» (بلغة ماكس فيبر)، وهو الأمر الذي يفسره وجود معتقدات دينية مختلفة داخل نفس المجتمع، بل وحتى تفضيل معتقدات دينية عن أخرى داخل نفس الدين (السُّنَّة، الشيعة، الكاثوليكية، البروتستانتية...) وعلى داخل نفس المجتمع والثقافة.

يتسم العالم أو العوالم الدينية بالتركيب والانفلات، نظراً لكون المعتقدات الدينية لا تحيل بالضرورة إلى قناعات - أو رؤى اجتماعية - تدافع عنها تنظيمات اجتماعية أو أفراد معينون فقط، بل تتضمن رهانات إيديولوجية، سياسية، اقتصادية.

كيف تُنتج المعتقدات الدينية نفس المجتمع، وما أنواع الروابط التي تولدها؟ وهل هذه الروابط السوسيو - دينية بين مختلف الديانات من طبيعة وبراديفم واحد؟ ثم، كيف تُسهم سوسيولوجيا المعتقدات الدينية في رصد، فهم، تحليل ودراسة التنوع والاختلاف المعتقدي داخل نفس العوالم الدينية وبين بعضها البعض؟²

تسمح لنا المقاربة السوسيولوجية بفهم العوالم الدينية وآثارها الاجتماعية وفق ثلاثة

مستويات رئيسية: الفاعلين، التنظيمات والإيديولوجيات. من حيث الفاعلين، تركيزها على النشاط الديني كنشاط اجتماعي³ يربط بين الأفراد، في علاقة مع العالم الرمزي، الذين يواجهون مسألة الشرعية. على المستوى التنظيمي، من خلال تركيزها على كون الدين جهازاً يستمر في الزمان

1 - هنا تشير إلى أن العلوم الاجتماعية، من حيث مقاربتها للتدين كممارسة وإنتاج اجتماعي داخل المجال، تدرس كل ما يعتقد فيه الأفراد والجماعات سواء ما ينتمي منها إلى الدين الرسمي أو غير الرسمي (كل ما يعتقد فيه الأفراد فهو ديني - بالنسبة للعلوم الاجتماعية - سواء اندرج ضمن المعتقد أو عارضه) (المرجع السابق، ص 283).

2 - بلغة أخرى هل السوسيولوجيا - لوحدها - قادرة على هذه المهمة؟

3 - هنا يمكن أن نركز على مسألة الإنتاج الاجتماعي للدين: كيف ينتج التدين اجتماعياً؟



ويحدّد نسق اشتغاله وسلطته¹. وأخيراً على المستوى الإيديولوجي، من خلال تركيزها أيضاً على كون الدين هو مجموعة من التمثلات والممارسات المعروفة، الموثقة في نصوص تؤول باستمرار². بلغة ماكس فيبر، يطرح كل مستوى من هذه المستويات الثلاثة مسألة بناء الشرعية سواء من ناحية العلاقات التقليدية (على المستوى التقليدي)، العقلانية الإيديولوجية (على المستوى العقلاني)، التنظيم الجمعاني (على المستوى التنظيمي) والتأثير الاجتماعي (على مستوى الفاعلين). لذلك يجب على السوسيولوجيا أن تقارب المعتقدات الدينية بما هو بها وما هو فيها؛ أي الاهتمام بالفاعلين الأساسيين في إنتاج «الحقل الديني» وطبيعة العلاقات والتفاعلات التي تنشأ بينهم سواء ضمن مستوى التدين الرسمي أو غير الرسمي، في إطار مسعى موضوعة الفعاليات التدينية في قلب الفعاليات العلمية: كيف تُنتج (المؤسسات) وتُعاش الأديان (الروابط والمؤانسة الاجتماعية)؟

بالعودة إلى ابستيمولوجيا الديني والمعتدي في العلوم الاجتماعية سنجد أنفسنا أمام فرضيات وأطروحات مختلفة تصب معظمها في ضرورة تجديد الحوار المتداخل التخصصات بين العلوم الاجتماعية في دراسة الظاهرة الدينية المعاصرة. لا يتعلق الأمر هنا باختيار يمليه تطور براديفم دراسة الظاهرة الدينية وإنما بطبيعة تطور الظاهرة الدينية وانشباكها في عالم اليوم.

بدايةً، يسمح لنا التاريخ بمعرفة الأسباب والشروط الكامنة وراء استمرار قوة الاعتقاد في أمور قد جوزت علمياً أو من الممكن أن تكون قد فقدت قيمتها أمام التطور الفكري والتقني للإنسانية: يتعلّق الأمر بما يسمه «پول فاين»³

1 - يمكن نأخذ أنموذج الكنيسة المسيحية الكاثوليكية التي استطاعت أن تستمر لقرون طويلة من خلال إنتاج نفسها باستمرار كتظيم اجتماعي مستقل بل ويؤثر على كافة المجالات الأخرى (السياسية، الاجتماعية...) بالشكل الذي تمّ الحديث بموجبه عن كونها مؤسسة اجتماعية، علمية، ثقافية... على عكس الديانة الإسلامية، حيث لم تبرز أي مؤسسة منظمة بهذا الشكل

2 - Jean-Paul Willaime, L'approche sociologique des faits religieux, op. cit.

3 - يحاول فاين الإجابة عن سؤال ما إذا الإغريق حقاً «يعتقدون في أساطير لا يمكن الاعتقاد فيها (الآلهة والأبطال والمخلوقات الأسطورية)؟ ليخلص إلى «أنهم يعتقدون ولا يعتقدون!» - لا يتعلق الأمر «بمغالطة» - «كان الإغريق على قناعة بأن الآلهة تعيش في السماء، لكنهم تفاجأوا برؤيتهم =

«Paul Veyne» بـ «Les Programmes de Vérité» «برامج الحقيقة»، بمعنى أن الأمر لا يتعلق بحقائق بصيغة الجمع (كما ادعى بعض النسبانيين)، بقدر ما هناك حقيقة يقينية وقطعية تكتسب قيمتها من عدد من السياقات وليس من غيرها: إن نفس الأشخاص قد يعتبرون أشياء متناقضة على أنها حقيقية؛ أو قد يكون لنفس هؤلاء الأشخاص، بنفس الإخلاص، تمسك بمعتقد معين في وضعيات خاصة ورفضه في أخرى؛ أو قد يكون هناك أشخاص، في نفس الفترة، يحملون تصورات مختلفة عن الحقيقة. أساساً، إنهم يتكيفون ويكيفون حقائقهم بحسب الظروف¹ والسياقات التي يسهم الدين في إنتاج شروطها الذاتية والموضوعية.

**بالعودة إلى ابستيمولوجيا
الديني والمعتدي في
العلوم الاجتماعية سنجد
أنفسنا أمام فرضيات
وأطروحات مختلفة تصب
معظمها في ضرورة
تجديد الحوار المتداخل
التخصصات بين العلوم
الاجتماعية في دراسة
الظاهرة الدينية المعاصرة.**

نتفق على أن الحقيقة كقيمة في ذاتها - باعتبارها أوهاماً تناسى الإنسان أنها كذلك بلغة نيته - لا تقترب بالضرورة بتطور المعرفة العلمية (سواء العقلانية العلمية، التجريبانية العلمية أو العقلانية التجريبانية) بل بـ «الوعي الجمعي» (بلغة دوركايم) أي ما اتفق الأفراد والجماعات على اعتباره صائباً وحقيقياً. لذلك قد لا يجد الأفراد راحة واطمئناناً أكبر في الحقيقة النابعة من العقل أو المنطق أو التجربة، لكنهم يكونون راضين أكثر عن الحقائق النابعة من الأساطير، النصوص

المقدسة، أقوال السلف، سلطة الماضي الأزلي... إلى درجة أنه يمكن لنفس الفرد أن يحمل معتقدات دينية تنتمي إلى «برامج حقيقة» مختلفة أو متناقضة فيما بينها سواء داخل نفس الدين أو بين أديان مختلفة.

= [الآلهة] فوق رؤسهم: إنهم يعتقدون في الأساطير ما دامت مفيدة لهم».

Charles-Henry Cuin, "La sociologie des croyances religieuses à ses frontières", op. cit. p: 82-83.

Paul Veyne, Les Grecs ont-ils cru à leurs mythes? Essai sur l'imagination : لمزيد من التفاصيل انظر: *constituante*, Paris, Le Seuil, 1983.

Charles-Henry Cuin, "La sociologie des croyances religieuses à ses frontières", op. cit. p: 83. - 1

ثانياً، تساعدنا الأنثروبولوجيا على رصد الشروط الثقافية والموضوعية لبناء «برامج الحقيقة» المتعددة، من خلال دراسة طبيعة العلاقة بين المعتقدات الدينية والفعاليات العلمية، أي كيف يمكن أن تتعايش حقائق دينية مع حقائق وواقع علمية؟ يمكن لنفس الأنثروبولوجي أن يمايز بين الدين الصائب والدين «الضال»، يمكن أن يعتقد بأن عيسى لم يصلب أو أنه ابن الله، أو يمكن أن يقرأ القرآن ويعتقد بأن التوراة والإنجيل كتب محرفة، أو حتى يحضر قداس يوم الأحد ويتناول الخبز والنبيد الأحمر معتقداً إنه لحم ودم المسيح، أو يكون على يقين بأنه «ميت وحي في نفس الوقت»¹ أو ينحر «أضحية العيد» معتبراً إياها فداء الله لقربان إبراهيم.

أليس «اللامعتقدين هم من يفكرون في كون المُعتقدين يَعتقدون فيما يَعتقدون»²! يتعلق الأمر بالملحدين الذين يسخرون من الحمقى المؤمنين الذين يعتقدون في كون هذه القرابين شيء أكثر من الماء والطحين، وعندما يُحيي الموتى أو أن الله قد خلق العالم في ستة أيام أو أفدى إبراهيم بكبش سمين! تسعنا المقاربة الأنثروبولوجية هنا أيضاً على فهم أن المعتقدين نادراً ما يتأثرون بهذه الخطابات المسفهة لمعتقداتهم بل يعقلنون تمسكهم بها، ويتحصنون ضد كل نقد منطقي أو تجريبي، من منطلق قوة البناء الثقافي والإنتاج الاجتماعي للمعتقدات نفسها وللبنى الذهنية للمعتقدين أنفسهم. لكن السؤال الأساسي هو فيما يعتقد المعتقدون حقاً؟ حاول الأنثروبولوجي البلجيكي ألبير بيت (Albert Piette)³ في دراساته، حمل المعتقدين على تحديد المعنى الدقيق لاعتقاداتهم، فشرع المستجوبون في تقديم سلسلة لا نهائية تقريباً من التأكيد والنفي المتتالي: «نعم، هناك حياة بعد الموت، ولكنها حياة مشابهة للحياة التي عشناها، إنها الحياة التي لا تعرف الموت، نعم، الموت هو نهاية الحياة البشرية، ولكنها ليست الأبدية» وهلمّ جرّاً...⁴

Ibid, p: 82-84. - 1

Jean Pouillon, Le Cru et le Su, Paris, Seuil, 1993. - 2

Albert Piette, Le Fait religieux. Une théorie de la religion ordinaire, Paris, Economica, 2003. - 3

Charles-Henry Cuin, "La sociologie des croyances religieuses à ses frontières", op. cit. p: 83-84. - 4

رغم عدم قوة بعض المعتقدات، أو زيفها، إلا أنها تحافظ على استمرارها وتكسب تأييد الأفراد بشكلٍ عفوي! وكأن الاعتقاد في الوهم نابع من منطق «الحسّ السليم» لخداع النفس.

يمكن أن نفهم نفس الأمر في ضوء مفهوم «العقلانية المعرفية» (La Rationalité cognitive) الذي اقترحه السوسيولوجي الفرنسي «ريمون بودون» (Raymond Boudon) لتفسير الاعتقاد في المعتقدات الهشة أو حتى الخاطئة، التي لا يتمّ تشاركتها أو الاعتقاد فيها - في حدّ ذاتها - على نطاق واسع، سواء ضمن نفس الدين أو بين الأديان المختلفة: إنها تُؤسس لمعارف عقلانية

يمكن أن نفهم نفس الأمر في ضوء مفهوم «العقلانية المعرفية» الذي اقترحه السوسيولوجي الفرنسي «ريمون بودون» لتفسير الاعتقاد في المعتقدات الهشة أو حتى الخاطئة، التي لا يتمّ تشاركتها أو الاعتقاد فيها.

تتجاوز كل ما هو ثقافي أو عاطفي ولا يمكننا الاستغناء عنها أو تجاوزها في ظلّ المعارف المحدودة للأفراد والجماعات¹، ويصبح الجهل بالمعتقد الذي يؤمن به المعتقد نفسه قوة للاعتقاد في هذا المعتقد! يمكن أن ننظر من هذه الزاوية إلى المعتقدات على أنها مقترحات تفسيرية ذات دلالات ومعانٍ مختلفة، فعندما أقول: «إن الباب مفتوح» فإنني لا أقول شيئاً غير أن الباب مفتوح؛ وعندما أقول: «هناك حياة بعد الموت» فإن الأمر يعني شيئاً غير الذي تقوله

العبارة التي استخدمتها. «بما أن مفاهيم كالموت والحياة هي الأخرى غير واضحة بالنسبة لبعضنا البعض، فإن التأكيد على أن هناك حياة بعد الموت يفتح حقلاً من التفسيرات اللانهائية التي يمكن الاختيار بينها - أو بشكلٍ أفضل، لا يمكن الاختيار بينها. وهكذا، فإن تشبث فرد معين باعتقاد ما، لا يمكن بأي حالٍ من الأحوال أن يسمح له بإصدار أحكام مسبقة حول التأويل

1 - حول هذا المشروع، راجع أعمال بودون التالية:

Raymond Boudon, Raison, bonnes raisons, Paris, Puf, 2003.

Raymond Boudon, Le Sens des valeurs, Paris, Puf, 1999.

Raymond Boudon, L'Art de se persuader - des idées fausses, fragiles ou douteuses, Paris, Fayard, 1990.



الذي يقدمه¹. لذلك يمكن أيضاً أن نضيف التأويل الحرفي لمقترح «أن هناك حياة بعد الموت» والذي يكون عادة أقل اختياراً (بدل أن نسمع أن «هناك شيئاً ما!») - حتى إنه أمر مثير للسخرية أن نستهزئ من هذا الاعتقاد².

ختاماً، ما هي المعتقدات الدينية وكيف يمكن دراستها سوسيوولوجياً! سنتفق على أنها متعددة، متعارضة، مختلفة وأيضاً متداخلة الأبعاد، لذلك فإن دراستها وموضعها تحتاج إلى تجديد الحوار المتداخل التخصصات في دراسة الظاهرة الدينية المعاصرة، ليس فقط بين العلوم الاجتماعية بل ومختلف العلوم الإنسانية الأخرى. لا يمكن لعالم الاجتماع الذي يرى أن قوة المعتقدات الدينية بدأت تضعف أو تتجه نحو النسق الدهراني أو المدني، أو أن نسبة المعتقدين المسيحيين في تراجع في مقابل تزايد عدد المعتقدين المسلمين، أن يدرك عمق الظاهرة التدينية والاعتقادية، بل يسهم في إنتاج «اعتقاد» (DOXA) بأن السوسيوولوجيا عاجزة عن فهم، تفسير وإمكانية التنبؤ بتحويلات وتغيرات الظاهرة الدينية³. لا يتعلق الأمر بمحاولة تكميم، مهنة، «تديين» (الدين) أو تكييف السوسيوولوجيا في إطار الانفتاح على المعتقدات الدينية، بقدر ما هي دعوة صريحة إلى البحث عن سبل إحياء المقاربة السوسيوولوجيا للأديان من خارج الأديان والمعتقدات الدينية من خارج المعتقدات نفسها⁴، لكن على خطى مختلف العلوم الفاعلة في مجال دراسة الظاهرة التدينية في شكلها المعاصرة - الأنثروبولوجيا، الإثنولوجيا، التاريخ، العلوم النفسية، الفلسفة.... - ضمن مقاربة متعددة ومتداخلة التخصصات.

1 - لمزيد من التفاصيل انظر: Cuin C.-H. (2012), "Les croyances religieuses sont-elles des croyances comme les autres?", Social Compass, vol. 59 (2), pp. 221-238.

2 - Charles-Henry Cuin, "La sociologie des croyances religieuses à ses frontières", op. cit. p: 84-85

3 - محمد الإدريسي، إستيمولوجيا الظاهرة الدينية بين الاستحالة والإمكان، مرجع سابق، ص 291.

4 - المرجع السابق نفسه.